جامعة الشهيد حمة لخضر .الوادي
كلية الآداب و اللغات
قسم اللغة و الأدب العربي

ماستر أدب حديث. س2
د. سعد مردف

شعر مغاربي حديث ومعاصر

النزعة الرومانسيَّة في الشعر المغَاربيّ الحديث

تعدّ الدراسات التي اشتغلت بالمدرسة الرومانسية المغاربية قليلة على الرغم مما يمثله شعراؤها من إسهام في حلقة الابتداعية الشعرية العربية كالشاعر أبي القاسم الشابي ، لذا تبدو الحاجة ماسة إلى ضرورة تعرف طبيعة المشهد الوجداني الرومانسي في الشعر العربي إبان مرحلة التحديث الشعري منذ نهاية العشرينات من القرن الماضي ، و مع دعوات كل من الشاعر الجزائري رمضان حمود و الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي الذين اعتنيا بالأثر الرومانسي، و نوها بأهميته في " تصور الشعر و التماس التحديث من خلاله " .

تتجلى التجربة الوجدانية المغاربية في ذلك التحول عن الشعر التقليدي إلى النزعة الرومانسية التي شملت الممارسات الشعرية الجديدة نائية بها عن النمط الموروث في محاولة للتخلي عن الطرائق النصية التقليدية ، و الشروع في تشكيل إيقاع مختلف للقصيدة العربية بالإفادة مما جد من تصورات عربية ، و أوربية حول الشعر ووظيفته و أنماط التعبير الشعري الرومانسي ، و هو ما لاحظناه في كتابات الشعراء المغاربة كالشابي ، و رمضان حمود و عبد الكريم بن ثابت و محمد الصباغ .

1. التسمية :

يتعدد المعنى الاصطلاحي للرومانسية بتعدد الممارسات و باختلاف انتماء النص إلى أزمنة و جغرافيات متنوعة ، و أيضا بما يكون من اختلاف في التصورات و المواقف الإنسانية , " و يفسر تعدد مفهوم الرومانسية بحسب ثقافات الأقطار المتجاورة و استقلال التصورات إلى حد التعارض ضمن نزعات ، و حركات أدبية و فلسفية في كل من أوربا و أمريكا .

و رومنس في أصل اللفظ " كلمة إسبانية تدل على تلك الصياغة الشعرية ذات الثمانية مقاطع بحيث " تكون فيها الأبيات الزوجية مشتركة في القافية و الأبيات الفردية مطلقة أي غير مقفاة ..و هذا السياق من النظم

متحدر من البيت الملحمي القديم المؤلف من ستة عشر مقطعا ، فيتحول فيه كل من الصدر و العجز إلى بيت مستقل "[1]

وقد أطلقت الرومانسية أيضا على تلك الألحان الموسيقية المتحررة من القيود و المعبرة عن أعماق النفس البشرية كما دلت على القصص العاطفية .

و المدرسة الرومانسية إنما تقوم كما يحدد ذلك الدكتور جبور عبد النور على المضمون الوجداني الذي ينبني على طلب الحرية و الانطلاق و الإغراق في الغنائية ..كما نجد فيه غلبة الإحساس الغامض على الفكرة الواضحة المحدودة المعالم ..و الرومانسية تهتم بالتعبير عن تأزم الفكر و الإرادة و القلق و الكآبة و التشاؤم و التمزق ..و فيه تقديم الخيال على العقل و الهرب من الواقع و الالتجاء إلى الحلم ، و في الشعر الرومانسي تمسك بالدين و ميل للغوامض ، و الأساطير ، و رؤية الطبيعة ملاذا ، و أنيسا ، و رفيقا ، و محاورا ، في هذا الشعر فردية متضخمة و دفاع عن المستضعفين في الأرض ." [2]

2. الرومانسية الأوربية :

" ظهر مصطلح رومانسية حوالي سنة 1674 في انجلترا ، و توطد حضوره في مقدمة كتاب توماس وارتن Thomas warton (تاريخ الشعر الانجليزي)الصادر سنة 1774 و الذي كان له الأثر البعيد في التعريف و الدفاع عن الشعر ، و القصص المازج بين عناصر الخيال ، و خرق المعايير و القواعد الكلاسيكية ".

أما في فرنسا فقد " مهد التيار العقلي الذي كان يمثله فولتير 1694 . 1778 لنشوء هذه المدرسة ، و كان يسانده تيار روحي يشيع الجانب العاطفي لهذا المذهب يمثله روسو 1712 . 1778, الذي يعد جَدًّا للمذهب الرومنسي "[3]، كما " يعد ألفونس دي لامارتين lamartine 1790 . 1769 من مشاهير الشعراء الفرنسيين الذين أثروا في الشعر العربي و هو زعيم الحركة الرومانسية "[4].

أما في ألمانيا فقد بدأت المدرسة بديوان (الكواكب و الأفلاك) الذي ألفه شعراء مدرسة «جوتنجن» عام 1772 بحيث مثل غوتة طليعة لانطلاق هذه النزعة من خلال روايته (آلام فرتر) .

لقد بدت الرومانسية باعتبارها " وصفًا جديدا للشعر يتعارض مع شعر الكلاسيكية المحدثة و يستمد الإلهام و المثل من العصور الوسطى ، و عصر النهضة " و لعل منشأ التعارض يتبين في رفض الشعراء و النقاد على حد سواء للأنماط الشعرية التي كانت سائدة في القرن الثامن عشر ، و تبني الأدب الألماني

---

[2] . نسيب نشاوي . المدارس الأدبية .ص : 158

[3] . نفس المرجع.ص 161

[4] نفس المرجع ص

أنموذجا في سبيل الخروج من الممارسات الأدبية و الشعرية التي عدوها جامدة " و ضمن هذا الإطار اتفقت كل الرومانسيات الأوربية ، و تم النظر إليها على أنها واحدة .

يرى مندور أن هذا المذهب الذي اتخذ من الأدب وسيلة للتعبير عن الأحاسيس الشخصية قد أسرف في اتجاهه هذا ...حتى أصبح في كثير من الأحيان صرخات عاطفية أو أنات شعورية ..ذلك أنه لم يعد يحفل بغير الترجمة عن العاطفة الشخصية .

3. في الأدب العربي الحديث:

" أخذ مشهد الرومانسية العربية في الانبثاق منذ السنوات الأولى من بداية القرن الماضي ، من خلال الأعمال اللبنانية أساسا على عكس الشعر التقليدي الذي انطلق من مصر ، فخليل مطران نشر ديوانه سنة 1908 و جبران كتاب الموسيقى سنة1905 و شيئا فشيئا عرف المشهد كيف يتسع في المهجر ، و مصر معا ثم يشمل الأقطار العربية الأخرى في المشرق و المغرب ، تبعا للشرائط الثقافية و الاجتماعية . التاريخية " [5].

و الرومانسية في الشعر العربي متأثرة بصورتها في الشعر الغربي تأخذ سماتها و خصائصها في الفن ، و المحتوى بحيث " نجد النزعة الذاتية مسيطرة على الأعمال الشعرية التي صنعها الإبداعيون العرب ، وأنهم يحتفون بالنفس الإنسانية كل الاحتفاء و يرفعونها إلى مرتفعة التقديس كما يمجدون الألم الإنساني و الذاتي و يلجؤون إلى الطبيعة ..و قد ألهمتهم هذه الطبيعة صورا خيالية منحت أشعارهم الحيوية و الجدة .. و من الناحية الفنية جددوا أساليب التعبير ، و نوعوها و أبدعوا الصور الفنية الجديدة ، و سخروا اللغة الشعرية لتصوير الشحنات العاطفية المتدفقة في نفوسهم ..و إذا كانوا قد تجنبوا التراكيب القديمة الجاهزة ، و الصور البلاغية البديعية و البيانية المتداولة ، فما ذلك لضعف في قاموسهم اللغوي ، فقد كان معظمهم يجيد العربية ، و يعرف أسرارها كبشارة الخوري و مطران ، و أبي شبكة و علي محمود طه و عمر أبو ريشة ، و إن ظهر تهافت أسلوب عدد منهم ، و جهله في استعمال قواعد البيان العربي على أنهم جميعا جددوا لغة الشعر و أوزانه و صوره"[6] . و مثلت تجاربهم وجها جديدا للقصيدة العربية يتغنى بهموم أفرادها ، و يعبر وفق أشكال من الأداء الشعري المتجاوز للأثر ، و المعهود من الكتابات التقليدية .

4. الشعر الرومانسي في المغرب العربي :

ظل السياق الثقافي و التاريخي المجتمعي معلَمًا بارزا في سيرورة النزعة الرومانسية في المغرب العربي ، " و بمعنى الحرية اندفعت ممارسات الشعراء تبحث لها عن المدى الذي يسمح للقصيدة بالتحرر من إسار التقليد ، و من متابعة الطرائق القديمة ، و القوالب الجاهزة و الانطلاق نحو جهات الأحاسيس الفردية التي تصل بين قوة الخيال الشعري الخاص ، و بين تأويله لجوهر الرؤية إلى الوجود ، و رغم أن شاعر المغرب

[5] . محمد بنيس الشعر العربي الحديث . بنياته و إبدالاتها .الرومانسية العربية .ص 27

[6] .نسيب نشاوي. المدارس الأدبية .ص 165

العربي بدوره كان انقاد إلى الرومانسية كاتجاه في التجديد الشعري تحت إغراء الترجمة ، فقد تمثلتها شعراً عصريا مشعا بشرارة الثورة ، و في الدعوة إلى التحرر من قيود القافية ، و الوزن ، و في إبدال المقطع بالبيت الشعري "[7] .

كان التحرر نمطاً غالبا على أشكال الممارسة النصية لدى هؤلاء الشعراء ، و من خلاله تحدد الأسلوب ، و الطابع المميز للنص الشعري الذي ينأى عما هو معياري ، و ثابت و مقلد " و قد كان لإبدال وضعية الدال العروضي و لفعل الخيال و الخصيصات النصية ذات الصلة بهما ، أثرها الأول و الحاسم على المسار الشعري الذي اختاره شعراء الرومانسية فقد تمثلوا الحرية تخلصا من تقليد الطرائق الشعرية القديمة ، و استشرافا لممكن العناصر ، و الدوال ضمن قصيدة تتطلع إلى إبدال العلاقة بالنموذج "[8] .

" بدا مشهد الرومانسية في المغرب العربي موشوما بأثر الانتماءات ، و القراءات التي تابعتها ، فاختلاف الشعراء في اختيار أنموذجهم الرومانسي ، و ترددهم بين العودة إلى المركز العربي ، أو الآخر الأوربي كان واضحا ، و حاسماً في حضور الرومانسية بالمغرب العربي ، فبحسب قراءاتهم في الأدب المهجري ، و الأوربي كانوا أقاموا صلتهم بالنص الأثر الذي جعلوه خلفية للوعي النظري ، و الحاجة التي استشعروها إلى إبدال الطرائق التي كانت القصيدة العربية ما تزال تنهجها منذ قرون .

5. مفهوم الشعر الرومانسي :

يعد رمضان حمود الشاعر الجزائري أول من تبنى هذه النزعة من بين الشعراء المغاربة على الأقل فيما طرحه من نظريات ، ذلك أنه دعا إلى الذاتية أو الفردية التي حوصرت زمنا في الكتابات التقليدية كما ألح على إتاحة المجال لأنا الشاعر ، و أحاسيسه كي تملأ فضاء القصيدة فالشعر في منظوره منبعه الوجدان و في ذلك يقول :

وقلت لهم لما تباهوا بشعرهم ألا فاعلموا أن الشعور هو الشعرُ

و هو يذكرنا ببيت عبد الرحمن شكري الذي حمل شعاراً لمدرسة الديوان :

ألا يا طائر الفردو س إن الشعر وجدانُ

إن دعوة رمضان حمود المبكرة في نهاية العشرينات من القرن الماضي لتعد مؤشرا على انطلاق القصيدة الرومانسية من دور التنظير إلى التطبيق في هذه المرحلة من تاريخ المغرب العربي الشعري " ففي ضوء اطلاع رمضان حمود على شعر مدرسة الإحياء ، و ما دبجته من خطاب نظري حول الشعر العربي ، و بالنظر إلى انفتاحه على المكان الرحيم للترجمة باعتبارها عنصر إخصاب للممارسة الشعرية تبين له أن المدخل الأولى بالعناية للعبور إلى الشعر الرومانسي هو الترجمة ، ولذلك قام احتفالا منه بالشعر الرومانسي الأوربي بترجمة قصائد من الفرنسية ليمثل بها الأنموذج المأمول بالنسبة للشعر العربي ، و خصص كتابه -

[7] . يوسف ناوري .الشعر الحديث في المغرب العربي ج1. ص :189

[8] . نفس المرجع . ص : 189

بذور الحياة ـ لتوطين الخطاب النقدي المنادي بالحاجة إلى الانفتاح على الآداب العالمية (الفرنسية هنا) ، و ترجمتها "[9].

هذا و قد كان موقف الشاعر أبي القاسم الشابي في نفس المرحلة من الحياة الشعرية العربية ، و حظها من الخيال دالا على تأسيسه لمفهومه الشعر منطلقا من النظرة الرومانسية ، و قد تناول في كتابه عن (الخيال الشعري عند العرب) نقدا للتجربة العربية " ولاحظ أبو القاسم الشابي أن الشعراء العرب لم يستعملوا الخيال الشعري على الطريقة التي وظفته بها الآداب و الأساطير الإغريقية و لا الآداب الأروبية الحديثة ، بل إن كل ما أنتجته العرب لا يستحق أن ينمى إلى الخيال ، و إلى الشعريّ منه بخاصة "[10] .

كتب الشابي عددا من المقالات و الرسائل التي دعا فيها إلى إحكام الصلة بين الشعر و الحياة كما دعا إلى الثورة الرومانسية التي تهز عروش القديم ، و تؤسس لعالم الجمال ، وحين صاغ الشاعر مفهومه للشعر في مجلة العالم الأدبي يناير 1930 أشار إلى ما هناك من علاقة بين الشعر و الطبيعة و الإنسان يقول الشابي :

" الشعر يا صديقي(تصوير و تعبير) تصوير لهذه الحياة التي تمر حواليك : مغنية ضاحكة لاهية أو مقطبة واجمة باكية ، أو وادعة حالمة راضية أو مجدفة ، ثائرة ساخطة أو تصوير لآثار هذه الحياة التي تحس بها في أعماق قلبك ، و تقلبات أفكارك ، و خلجات نفسك و زخرفة أحلامك و عواطفك و تعبير عن ذلك الشعور أو هاته الآثار بأسلوب فني جميل ملؤه القوة و الحياة ، يقرؤه الناس فيعلمون أنه قطعة إنسانية من لحم و دم و قلب و شعور لأنهم يحسون أنه قطعة من روح الشاعر ، و عبق من عواطفه ، أو فلذة حياة من فؤاد الحياة " [11]

و من التعريف الآنف يتجلى مفهوم الشعر الرومانسي عند الشابي ، و من جايله من شعراء المرحلة بحيث نحس تلك الثورة على الممارسة التقليدية ، و الرغبة القوية في التأسيس للشعر الذي يتجاوز حدود الشعر العصري إلى أشكال أكثر التحاما بالطبيعة و الحياة و بالإنسان .

أ. الرومانسية في الشعر التونسي :

تضافرت جملة من العوامل التي ساهمت في بعث النزعة الرومانسية في الشعر التونسي منها :

- " ظهور الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد 1934 .
- إطلاق حرية الصحافة بعد صدور قانون بلوم سنة 1936 و دعم الصحافة للحزب الحر الدستوري حيث لعبت الصحف «كالواجهة ، و الدستور ، و تحت السور ، و الشباب» التي أطلقها على التوالي القاص علي الدوعاجي ، و الشاعر (محمود بيرم التونسي) دورا حيويا في إثارة القضايا ، و إشاعة النقد الحسي .

[9] . نفس المرجع ص : 192

[10] نفس المرجع ص : 192

[11] . نفس المرجع ص : 194

ـ إصدار زين العابدين السنوسي لمجلة ـ العالم الأدبيـ التي هيأت البيئة لنشر كتابات أبي القسم الشابي و مصطفى خريف و محمد البشير البشروش ، و محمد الحليوي ، و علي الدوعاجي و محمود المسعدي ، و كان أثر المجلة واضحاً في اتساع الشرائح الأدبية و الأجناس التي انتهت إلى إفادة الأدب التونسي بقضايا ، و موضوعات أدبية من كل الأجناس " [12]

لقد كانت الممارسات الشعرية الرومانسية مغايرة للسائد الشعري التقليدي بتونس و أخذ اللون الرومانسي يسفر عن سيطرته على المشهد الشعري التقليدي الذي كان يتزعمه آنذاك كل من عبد الرزاق كرباكة و محمود بورقيبة و الطاهر قصار ، و بعد هذه الغلبة للنزعة الرومانسية أسقط من الحساب مبدأ الانتماء للبيت و القبيل في الرؤية الشعرية حيث لم يعد ثمة حديث عن الإمارة الشعرية التي أزمع عقدها و انتخاب أميرها بعد الشاعر التونسي محمد الشاذلي خزندار لتبدأ مرحلة جديدة أقرب إلى التجديد في النظرة للحياة ، و الواقع و الشعر .

لقد أصبحت الممارسة تجربة فردية خاصة بالشاعر يحملها رؤيته المنبثقة عن قراءاته في شعر الرومانسيين فهي " تستحضر الغاب و التذاوت مع الطبيعة لتبني خطابها الخاص ، فيتمثلها الشاعر الرومانسي بإحساس الآلام الفردية تجاوبا مع الطبيعة ، و بحثا عن مظاهر انسجام الكائن و الوجود "[13] .

" رأى أبو القاسم الشابي نفسه نبيًّا في مذهب الحياة ، و لكن قسوة المجتمع حسب اعتقاده حطمت قيثارته فانطلق إلى الغاب ينشر رسالته ، و بين الطبيعة ، و الفن وصل الشعر إلى قمة التألق الرومانسي وجد ذاته في الطبيعة ، فمال إليها ، و مجد فيها آلامه ، و غلب العاطفة على العقل و ثار على الواقع ، و بنى لنفسه في غابها مجدا فلسفيا أملاه على الطيور ، و الغصون على نحو مافعل جبران و أبو ماضي"[14] نصغي إلى الشابي يقول :

إنني ذاهب إلى الغاب ، يا شعـ بي لأقضي الحياة وحدي بيأسِ
إنني ذاهب إلى الغـــاب علِّي في صميم الغابات أدفِنُ بؤسي
سوف أتلو على الطيور أناشيـ دي و أفضي لها بأشواق نفسي
فهي تدري معنى الحياة و تدري أنَّ مجدَ النفوس يقظـــةُ حِسِّ[15]

هـ ذا و قد أملت ذوات الشعراء عليهم الرؤى فطلعوا بالقصائد التي تتغنى بهموم الفرد على نحو ما نجد لدى الشاعر (سعيد أبو بكر) 1899 ـ 1948 حين يتخذ من صورة الأعمى ، و نجواه مادة لمتخيله الشعري في قصيدة (أنشودة الأعمى) التي وزعها بطريقة الرومانسيين :

قلبـُـوا الطرف اطلاعـا أبصــروا نقطة الأعمى

---

[12] المرجع السابق ص : 195

[13] . نفس المرجع 198

[14] . نسيب نشاوي ص : 283

[15] . .أبو القاسم الشابي أغاني الحياة . ص: 125

و انظروا هولا عظيما و اذكروا أنني الأعمى
ردِّدُوا أبصـــــاركم في كل ما حولكم يجري
حيث عينُ الكون ممزوجًا دما دمعُها يجري
و اجعلوا النوح إليكم بلسمًا إنْ يكنْ يبري
ثم لا تستنكفُوا ، أو تنكرُوا ذلك السَّهمَا
وانظروا أخلاق سوءٍ و اذكروا أنني الأعمَى[16]

ب. الرومانسية في الجزائر :

من أهم المؤثرات في الحركة الشعرية بالجزائر تلك العناصر التاريخية المتمثلة بالأساس في الإستعمار الفرنسي فبعد الحرب العالمية الأولى تنامى الشعور بثقل الواقع المعيش ، وزراية الحياة و المجتمع و بسبب هذه الأوضاع تفاقم الشعور بالحيف ، و الرغبة في تحديث الواقع و الحياة و القصيدة في آن واحد ، يقول محمد ناصر متحدثا عن ظهور هذا المذهب :" إن البداية الحقيقية لهذا الاتجاه إنما بدأت في الأشعار التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى ، مع بداية الوعي بالواقع الاجتماعي و السياسي ، فإن الأوضاع المؤلمة التي فرضها المستعمر آنذاك تعد مؤثرا أساسيا في طغيان مشاعر الحزن ، و الكآبة التي لونت الشعر الجزائري آنئذ حتى غدت طابعا عاما يميز أغلب الإنتاج الشعري الذي ظهر في العشرينيات ، و كما أن ظهور الرومانسية في فرنسا إنما مهدت له آلام الشعب الفرنسي ، و شكواه من النظم الاجتماعية التي كانت سائدة ...فإن (ذلك)ما حرك مشاعر الإحساس بالذات و الثورة على الظلم في نفوس الشعراء الجزائريين ، و خيبة أملهم في مواعيد السلطات الفرنسية الكاذبة "[17].

إن هذه الأوضاع كانت كفيلة بإشاعة حالة من اليأس و التأزم في نفوس الجزائريين هذه المشاعر التي ظلت مخيمة حتى تأسيس جمعية العلماء المسلمين سنة**1931** التي بدأت في توفير أسباب النهضة الثقافية و الاجتماعية و التي أعادت تشكيل الفكر و التصور بما أعاد الأمل للنفوس المحطمة .

تعد تجربة رمضان حمود من الشرارات الأولى للرومانسية و قد تجلى إعلانه الانتماء لهذا المذهب فيما وضح من تخلصه من قيد العروض في بعض كتاباته الشعرية و ذلك كأن ينوع في القوافي مخالفا ما كان سائدا في شعر التقليد من نحو قوله :

بكيتُ ، و مثلي لا يحقُّ له البكا على أمَّةٍ مخلــوقـةٍ للنـــوازلِ
بكيتُ عليها رحمةً ، و صبــابةً و إني على ذاك البكا غير نادمِ
ذرفت عليهَا أدمُعًــا من نواظرٍ تساهر طول الليل ضوء الكواكبِ
بكيتُ على قومي لضعف نفوسهم على حمل أثقال العلى ، و الفضائلِ
بكيتُ عليهم ، و الحشا متقطِّعٌ بكائي على طفل ضعيفِ العزائمِ

[16] .سعيد أبو بكر. السعيديات , ص : 75 نقلا عن يوسف ناوري

[17] . محمد ناصر . الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته و خصائصه الفنية . ص : 88

بكيتُ عليهم إذ رأيتُ حياتهم مكدَّرةً ، مملوءةً بالعجـــائب[18]

وواضح ما كان من تنويع في القوافي بما لم يكن للشعر التقليدي عهد به ، و هو ما نراه لدى كبار شعراء الرومانسية العربية من أمثال صدقي الزهاوي و عبد الرحمن شكري .

تعتبر تجربة حمود متحققة بالأساس في جهده النظري ، و ما قدمه من نظريات ، و دعوات تحمل خصائص المدرسة الرومانسية على أن ما أنتجه لقلته لا يمثل ما يعتد به في استحضار الملامح المميزة للمذهب " غير أنه قاد فكرة الخروج عن القافية ، و نظام الوزن في الشعر الجزائري الحديث بدعوة ظلت محدودة الأثر ، و غير كافية لتبين طريق الإبدال الشعري الرومانسي رغم ما هيأ لها من خطاب نظري تعاضدت فيه عناصر المراجعة النقدية لقديم الشعر العربي ، و لقصائد من شعر أحمد شوقي مع الدعوة إلى أخذ الترجمة فعلا مساعدا على تجديد الممارسات ، و الخروج بالشعر العربي من إسار التقليد "[19]

من الشعراء البارزين في المدرسة الرومانسية بالجزائر ثلة ممن اعتمدوا على نظريات حمود ، و على نصوص الشابي الشعرية و اتخذوها ، و غيرها من قصائد الشعراء الرومانسيين كمطران و أحمد زكي أبي شادي أنموذجا يحتذى ، و من هؤلاء الشعراء مبارك جلواح العباسي و عبد الكريم العقون ، و الطاهر بوشوشي ، و عبد الله شريط و آخرون و في شعر هؤلاء ما امتلأت به الدواوين من تغنٍّ بهموم الذات و أزمات النفس و إحساس بالحيف و رغبة في الانعتاق من الظلم ، و الاستبداد و ربما غلبت على بعضهم مشاعر اليأس والقنوط كما نجدها عند مبارك جلواح العباسي (على مصرع الأمل):

هنا بين هذا الدوح ، و الزهـــــــــراتِ غسلتُكَ قبلَ الدفـــــــــــنِ بالعبراتِ

هنا راعَني فيك القضـــــــــــاءُ بضربةٍ فقـدت فؤادي بعـدهَـا ، و حصـــاتِي

و من تحت ذا الصـــوَّانِ في كنَفِ الدُّجى دفنْـتَ ، و قـد كفنـتَ في مُهَجـاتي

و خلفتَـــــــــــني في ذي المغاوِرِ شاردًا أســـــائـلُ عنـكَ الأفقَ ، و الربواتِ

و أبحـثُ من وجْـدي عليـكَ و لوعتي خلالَ شـــهورِ العمرِ ، و الســـنواتِ

فلمْ أتبينْ من وراء غبـــــــــــارها سـوى صُـورِ الخيباتِ ، و الحسـراتِ[20]

كما يعد عبد الله شريط من أولئك

[18] محمد الهادي السنوسي شعراء الجزائر في العصر الحاضر ص: 173

[19] يوسف ناوري .الشعر الحديث في المغرب العربي. ص: 204

[20] .عبد الله الركيبي. الشاعر جلواح من التمرد إلى الانتحار. ص 349

الشعراء الذين أخذوا بالنزعة الوجدانية ، و شكلت ملمحا عاما لأشعاره كلها برزت في غضونها رومانسية الإنسان الجزائري الذي يرزح في نير الاحتلال و يكتوي بناره ، و " الرؤية الرومانسية تظهر أكثر فيما تظهر في القصائد التي يتحدث فيها الشاعر عن الطبيعة أو يحاورها على أصح تعبير ، و هي تلك التي يتحدث فيها عن الليل و الصيف و الغروب و غيرها مما يمتزج فيها الحديث عن الطبيعة بالحديث عن الحب "[21]

ننظر إلى الطبيعة في شعر شريط من خلال ديوانه (الرماد) فنراه يتجاوز صورتها المادية و يستكنه أسرارها باثا إياها أحزانه و أفكاره :

هكذا يمحي الضيـــــاء من الأفق و يخبُــو كما خبَتْ أحــلامي

و يموت الشعاعُ في قبضة الصمت وراء الجبالِ , و الأكمـــــامِ[22]

إن الليل الداهم هو ليل النفس المتأوهة اليائسة هو إحساس الشاعر بالوحشة ، و الإحباط الذي يخيل إليه ظلمة الأشياء حوله :

و أَرَى الليلَ قابضًـــــــــــا بيديهِ عـنُـقَ الـكـونِ بـارداً كـالـحِـمـامِ

جـاء كـاليـأسِ ســـاكتـاً يتمشَّـــى مـثـقَـلَ الـخـطْو فـي فـؤادِي الـدَّامِـي

في حشـــاهُ البعيـدِ يبتلِعُ الـدنيـا فتختفي في جوفـــــــــهِ المترامي[23]

هكذا تنطبع صورة العالم كما هي في نفسه فإذا الليل يستحيل وحشا مفترسا ، و يأخذ كل شيء ملتهما فؤاد الشاعر حيث لا يستبقي منه بقية لحياة ، و بمثل هذه الصور تتداعى أنماط الأخيلة في قصائد الرومانسيين مستجيبة للعواطف المحمومة الملتهبة بأوار الواقع المتشظي .

كما " جاءت قصائد محمد أبي القاسم خمار 1931 قبل أن يتوجه إلى كتابة الشعر الحر مفعمة بالعناصر الرومانسية و بتمثل بنائها قصيدة صوت فردي و نشيدا للأحاسيس يصدر قصيدته (عودة) بالبيتين الدالين على تصوره الشعري " :

---

[21] . نفس المرجع , ص : 50.

[22] . نفس المرجع.ص 51

[23] نفس المرجع.ص 51

كنتُ و الشعر ، و الصِّبا ، و الأماني وتراً ساحرَ الهـــــوى ، و الأغاني

مِن نشيدي ذاتُ الجناح هَتـــــوفٌ ، و ارتعاشُ الفـراش من خفقـــاتي [24]

ج. الرومانسية في المغرب:

ترك المد الشعري الوافد من المشرق أثره الحاسم في شعر المغرب إبان الثلاثينات من القرن الماضي ، و كانت قصائد شعراء التجمعات الأدبية كالديوان و جماعة أبوللو و المهجريين بالغة التأثير في الممارسات الشعرية المغربية بحيث قدمت شكلا للإبدال المنقطع عن النمط التقليدي ، و الآخذ بأسباب القصيدة الرومانسية بموجب التأثر مع ما يفد من المركز ، و قد كانت تلك الأشعار صادرة عن واقع مأزوم بفعل انسحاق الذات في أتون المعاناة من المعيشة و الاستعمار .

أصبح للشعر مفهوم جديد فقد بدأ تشكل الوعي بالنص الجديد الذي ينبني في الأساس على الحرية في التعبير عن الوجدان كما أنه ينبعث من الروح ، يقول الشاعر المغربي محمد بن إبراهيم :

الشعرُ ما سمعته الروح ، و انتعشتْ منه ، و صارت به كالشارب الثمِلِ

و الشعرُ ما قد حلا في أذْن سامعه ثم استعـــادَه لا يخشى من الملل

إنْ كان هذا ، فإنَّ الشعر منعدمٌ ، و ليس يأتي إذا لم يأتِ من قِبلِي[25]

لقد استتبع موجة التجديد على نطاق النص ذلك الخطاب الحامل لنظرية الإبدال الرومانسي ممثلا في ما حدا به النقاد هذه النزعة الوجدانية ، و كان الناقد سعيد حجي واحدًا ممن دعا إلى هذا التحديث يقول : " الأدب صورة ناطقة عن حياة الإنسان السارة أو المحزنة ، ترسمها النفس ، و شعور يضطرم به الوجدان ، و نار تتأجج في صدر العبقري المتمرد على صور التواتر البالية ، و المتحمس لتحقيق رغبات نفسه الكبيرة المجسمة لمثلها العليا في أبهى صورة ، فهو روح سماوية تعمل لخير الإنسانية ، و لتقويم دعائم سعادتها بأن توضح لنا ما في الحياة من شقاء نتجنبه و سعادة نسرع إليها "[26]

و انطلاقا من هذا المفهوم النظري للشعر انساقت الممارسات الشعرية لتتجاوب مع أصداء الرومانسية في تشكيل القصيدة التي تستحضر الطبيعة كعنصر رمزي معادل لحالات الشعور و تتخذ من فضائها أداة لصناعة الجمال

[24] . يوسف ناوري. لشعر الحديث في المغرب العربي ص 208

[25] . محمد بن ابراهيم. ديوان شاعر الحمراء , ص: 248

[26] . سعيد حجي . رسالة المغرب نقلا عن يوسف نوري .ص : 211

الفني ، مع تبني القيم الإنسانية الشاملة بحيث كانت مجلة (المعتمد) الصادرة في العرائش 1947 .1954 مجالاً للنشر مع إفساح المجال للكتابات المشرقية ذات الطابع الرومانتيكي .

من الشعراء الذين يمثلون التحول نحو الرومانسية الشاعر عبد القادر حسن المراكشي و هو ممن ثار على المفهوم التقليدي للشعر، و في وجدانياته " و ما أوضح المؤثرات التي في مقطعاته من أدب المهجر الأمريكي الشمالي و القارئ...يمكنه أن يلمس بعض العبارات و الصور و الإيقاعات التي تنطق بهذا التأثير "[27] يقول في قصيدته (انطلاق) من ديوان أحلام الفجر :

صاح إن الرشـــد ثاب و حلا الشدو و طابْ
فاشدُ في كل الهضاب بأمـــانيك العذابْ
لا تغادر أي لحنِ
انسَ ما كانَ و ما سوف يكونْ و التهِمْ ما لاح في ليل الحياةْ
التهِـــــم دون توانٍ ، أوسكون كل ما عن بها من طيبات
إنها ليست تعيرُ الهائبـــــــين قطف ما تنتجه أي التفات
التهم دون تأنٍّ
ما سيفنى عنك ذكره من تبدى لك هجره
مثل روض جف زهرهْ لم يعد يعبق عطره
ما سيفنى ؟ ما ما سيفنى؟[28]

" و لقد ظهر في هذا الجيل الذي رأى الطريق للتحول من الإحياء و البعث إلى الاتجاه الرومانسي عدد من الشعراء يختلفون من حيث المحافظة أو التجديد و كلهم أخذ بحظ من الاتجاهين و على رأس هؤلاء محمد الحلوى و عبد الكريم بن ثابت و عبد المجيد بن جلون "[29] .

قدم عبد الكريم بن ثابت ممارسة شعرية منذورة للبحث عن الحرية التي ابتغاها لذات الشاعر أفقا حياتيا ، و شعريا فديوانه الذي صدر بعد وفاته سنة1968 بعنوان الحرية تصدرته قصيدة " قيد "تتمثل قيود القول و الوطن لتعلن مواجهتها بالبحث و السؤال ، و بضرورة إزاحة الأقنعة عن الفكر و الروح ، عن الأجساد و الأوطان ، و في المقطع الثاني من القصيدة يستحضر الشاعر وطأة القيد على النشيد فيقول

كنتُ مذ جئتُ إلى الأرض أغني للجمالْ
و لقد كانَ بعيدًا فوق آفاقِ الخيـــــالْ
فتطلَّعتُ إليه ، و تمنيـتُ الوصـــــــال

---

[27] . عبد الحميد يونس و فتحي حسن المصري .في الأدب المغربي المعاصر . ص : 62

[28] . المرجع السابق ص: 64

[29] .نفس المرجع. ص : 64

و إذا القيدُ ثقيلٌ في فمي رغمَ النضـــالْ

أين ذاك القيدُ أينْ؟

أتراه اليـــوم عينْ؟

واضح ولع الشاعر بتحديث نصه من خلال بناء خطابه متكئا على الخيال و الحقيقة و النبوءة و التقدم ، رابطا بينه و بين الحياة و الوجود ثم بين الطبيعة ، و صوت القصيدة شأن الرومانسيين .

الرومانسية في ليبيا :

لتأخر ظهور القصيدة الرومانسية في ليبيا أسباب تاريخية كتلك التي خضع لها كل الشعب الليبي الحديث من استعمار إيطالي ابتغى محو حضور العربية ، و من عودة الاهتمام بالشعر الشعبي الذي أصبح إلى حين هو الأدب الليبي حقا و لذلك لم يتهيأ للرومانسية الانطلاق إلا في سنوات الأربعينات مع ظهور بعض الممارسات الفردية بالخصوص الشاعر إبراهيم الأسطى عمر 1950 ـ 1908 فبعد مرحلة التبست فيها أحاسيسه الوطنية و الإصلاحية و دعا إلى تحرير الوطن كما في قوله :

قيلَ صمتًا فقلتُ لستُ بمَيْتٍ إنما الصمتُ ميزة للجمَـادِ

إنَّ معنى الحياة قولٌ ، وفعلٌ و هيَ رمزٌ مقدسٌ للجهـــادِ

لا أطيقُ السكوتَ ما دام قلبي خافقاً و اللسان يروي مرادي

انتقل إلى تلمس طريق رومانسية نجد بعض عناصرها في قصيدته " لو تعلم ما بي " و بقصيدته " ما الحياة ؟ " التي صدرها بالمقطع :

قمت من نومِيَ مذعورا على صوتٍ ينادي

يا إلهي من ترى هذا الذي قضَّ رقادِي

ما الذي يرجوه مني من ضلالٍ أو رشادْ

و أنا أعمى و سيري فوق أشواك القتادْ

و في شعر علي الرقيعي تتضح الأحاسيس الفردية، و يتجلى إبحاره في معاني الوجود، و تفاعله مع القيم السائدة في حياة الناس يقول في قصيدته " من أنا ؟ ":

من أنا ماذا استفاد العالم من وجودي ؟ ليت حوا لم تلدْ

و أنا ..أنت كلانَا ظالم لا يحبُّ الحق غـــــــاوٍ مستبدْ

و في قصيدته صوت الشاعرين إيليا أبي ماض، و جبران خليل جبران يبدو واضحا، وذلك عبر تجسيده للقلق الفردي .

كان العبور إلى الممارسة الرومانسية في شعر المغرب العربي متمثلا لعدد من العناصر النصية، و النظرية التي أتاحت الخطابات للشعراء أنفسهم التعرف عليها، بعضها شاع في المركز متجاوبا مع الشعر الرومنسي الأوربي قبل أن يتصل به

شعراء المغرب في مختلف لغاته ، أو ينتقل إليهم إلى جانب مؤثرات نظرية ، و عناصر نصية أخرى هيأت لإبدالات القصيدة في المغرب العربي .

تجلِّياتُ الرومانسيةِ في القصيدة المغاربيّة

إنَّ من يقرأ قصائد الشعراء المغاربة ذوي النزعة الرومانسية يعثر عن أن هؤلاء الشعراء لم ينأوا بكتاباتهم عن تلك الملامح الفنية، و الروحية التي نجدها في شعر إخوانهم من شعراء المشرق، و إن بدَت القصيدة المغاربية تحمل جوهر الواقع، و البيئة ،و ما يمور فيها من أحداث شكلت على نحو مميز أزمة الشاعر، و أسئلته ، و معاناته النابعة من الحيف الذي يلقاه مجتمعه بصورة عامة، و الذي يعالجه هذا الشاعر كفرد له ذات منسحقة في أتون الظلم، و الاستعمار و الطغيان ، و قد أفرزت هذه الأوضاع تعاملا فنيا يتميز بالخصب، و الصدق ، والتذاوت ، كما تحددت من خلاله القصيدة الرومانسية بأبعادها و شروطها التي كونت التجربة الوجدانية المغاربية .

– الثورة على السلطة العقلية :

انحسر العقل في القصيدة الرومانسية بعد أن كان بادي الحضور في القصيدة التقليدية ، و مع هذا الهروب من أسر النظرة العقلية مضى الشعراء في تمردهم عن سلطته، و سبحوا بخيالاتهم ، و أمعنوا في نشدان التحرر من ربقة المجتمع ، و رقابته و قيوده ، كما رأوا في الجمال، و الإحساس الصادق قائدا لعواطفهم الجارفة يقول الشابي معلنا ثورة الفرد الطامح على المجتمع السادر في ظلامه، و الموغل في حيفه، و تكره لذاته الشاعرة :

أَيُّها الشَّعْبُ ليتني كنتُ حطَّاباً
فأهوي على الجذوعِ بفأسي
ليتني كنتُ كالسُّيولِ إذا سالتْ
تَهُدُّ القبورَ رمساً برمسِ
ليتني كنتُ كالرِّياحِ فأطوي
كلَّ مَا يخنقُ الزُّهُورَ بنحسي

ليتَ لي قوَّةَ العواصفِ يا شعبي
فأَلقي إليكَ ثَوْرَةَ نفسي
ليتَ لي قوَّةَ الأَعاصيرِ إنْ ضجَّتْ
فأدعوكَ للحياةِ بنبسي
ليتَ لي قوَّةَ الأَعاصير لكن
أَنْتَ حيٌّ يقضي الحَيَاة برمسِ

أَنْتَ روحٌ غَبِيَّةٌ تكره النُّور
وتقضي الدُّهُور في ليل مَلْسِ
أَنْتَ لا تدركُ الحقائقَ إن طافتْ
حواليكَ دون مسٍّ، وجَبَّسِ
في صباحِ الحَيَاةِ ضَمَّخْتُ أَكوابي
وأَترعتُها بخمرَةِ نفسي
ثمَّ قَدَّمْتُها إليكَ فأَهرقْتَ
رحيقي ودُستَ يا شعبُ كأسي
فتألَّمتُ ثمَّ أسْكَتُّ آلامي
وكَفْكَفْتُ من شعوري وحسّي

– اللواذ إلى الطبيعة، واتخاذها مادة للشعر، والقصص:

احتفى الشعراء الرومانسيون بالطبيعة، و ما فيها من كائنات ومظاهر ، و تقلبات تعادل أحاسيسهم، و مشاعرهم ، فاتخذوها كهفا لجأت إليه نفوسهم الحائرة، و استمدوا من مظاهر الطبيعة صورهم، و رموزهم ، والحكايات الشعرية التي عبرت عن تجاربهم الحزينة ، و تَوقهم إلى الحياة و الحرية ، و الشاعر في وقوفه على مظاهر الطبيعة يتجاوز مناظرها الظاهرة إلى خفاياها ، و إشاراتها و أسرارها التي تطبع صورة نفسه المتشظية، فهو " ينظرُ إلى الطبيعة نظرة تتجاوز أفق المشاهدات الحسية، و مما لا ريب فيه أن التصوير المعنوي الذي تثيرهُ المشاهد الطبيعية هو أقوى ، و أهم في شعرنا الحديث منه في أي عصر من العصور الشعرية الماضية ، و هذا راجعٌ إلى رؤية الشاعر الرومانسي العربي للطبيعة "[30] ، يقول الشاعر المغربي عبد الكريم بن ثابت :

حياتُكَ كَهْفٌ تَهِيمُ السّنُونْ بِغَيبِه، وتَعيشُ الظنُونْ
تَبختَرُ فيهِ أفاعي الأسَى وتمْرحُ مَزهُوَّة الَممنُونْ
وفيهِ السَّآمَةُ قدْ أينَعَتْ كمَا أثْمَرتْ شَجراتُ الشجُونْ
وفي كُلِّ ركْنٍ أَريجُ الضّنَى لهُ كلُّ لونٍ كئيبٍ حزينْ
لماذا أأنْتَ الوحِيدُ الَّذِي أَبى أن يهانَ بهِ وَأنْ يهُونْ

[30] .قريرة زرقون نصر.الاتجاه الرومانسي في الشعر العربي الحديث بالمغرب .ص228

- **الولع بموضوع الاغتراب ، و الحنين ، و التوق إلى الحرية ، كما انتظمت موضوعات الشعراء مهاجمة الظلم، و الاستعمار، و أنظمة الاستبداد دون الخروج عن الذاتية ، ووصف آلامها جراء أشكال الحيف الاجتماعي، و السياسي ، و قد كانت القصائد تميل إلى الطابع الإنساني في طرح هذه الموضوعات بحيث تنتصر للإنسانية، و قيمها ، يقول الشاعر التونسي منور صمادح :**

اليومَ يَنْطلِقُ الشبَا ... بُ لنُصْرة الشعبِ الحَزينْ
ويحَرِّرُ الوطَنَ المقدَّ ... سَ منْ قُيود المُجرِمينْ
ويثُورُ جبَّارا يدَمْ ... دِمُ في وجوهِ الغاصِبينْ
حتامَ، والأحرارُ في ... عسْفٍ، وفي ضَنَكٍ مُشِينْ
ما بينَ جُدرانِ السُّجُو ... نِ معذَّبينَ مُغَلَّلِينْ
لا بدَّ منْ تحريرِهِمْ ... منْ قبضةِ المتَأمِّرينْ
مهمَا طغَوا ستؤلَّبُ ... الدنيَا على المسْتعمِرينْ[31]

- **العزوف عن اللغة الكلاسيكية، وترك الجزالة، والتصنع: ذلك أن الشعراء التعبيرين كانوا حريصين على بث شجواهم ونقل أحاسيسهم، وخواطرهم بلغة سهلة مأنوسة، مع الترخص في بعض الضوابط اللغوية، وتطلّب الجمال، وإيحائية اللغة.**

– العناية بالوحدة العضوية للقصيدة، وقد كانت القصيدة التقليدية تعتمد على البيت الشعري كوحدة لها تستقل بالمعنى، فيما رأينا النص الشعري لدى هؤلاء الرومانسيين يضعون له هندسة للمعنى تتماشج، وتتعانق عبر المتن في نسيجٍ واحد يتكامل عبر الصورة، والفكرة، والمشهد، وتستمدُّ من عنوان القصيدة خيطًا للدلالة يمتد ظلهُ في سائر الأبيات.
– توظيف الأسلوب القصصي، واللوحات الحوارية التي أشاعت في النص الشعري حيوية، واتخذ بعض الشعراء من القصة نمطا للتعبير الفني عن تصوراتهم، وآرائهم في الناس والحياة، وفي القصيدة الرومانسية تماسكٌ شديدٌ وبنيةٌ عضوية واحدة، يقول الشاعر الجزائري عبد الله شريط:

كلَّما أجهدْتُ أحلامِي، وفَنِّي ... أنْ تَرَى منكَ شُعاعا باسِمَا
أو تَلَمَّحتُكَ في غِيرانِ حُزني ... عَلَّني ألقَاك جرحًا أبكمَا

[31] . منور صمادح. الشهداء. مطبعة العهد الجديد.ط1.سنة 1956 ص 150

أو تَسَـــمَّعتُك في أصـــداءِ لحْني كلَّما انسَـــاب بقلبي كـالـدِّمَـا

عــدتُ مـكــدودًا، وفـي عـيـنَـيَ غَبنِي كنبيٍّ وحيُـهُ قـد فُصِـــمـا

كانت الرومانسية المغاربية انتقالا فنيًّا للقصيدة من دور الخطاب، والتقليد، واستعادة نمط الموروث إلى دور جديد من الممارسة ذات البعد التجديدي المنفتح على الذات، وهمومها الفردية، وانطلاقة متوثبة للقصيدة في فضاء التشكيل بعيدا عن الصور الجاهزة، والمعجم الوظيفي، والموسيقى الثابتة، وكان للشعراء موقف تحرري مهروا فيه المتن الشعري بجملة من التحديثات الأولية التي كانت خطوات قدمت لانطلاقة جديدة نحو التحديث الذي عرفته حلقات التجريب في الشعر العربي.